التّصوير القرآني لأعمال المنافقين في غزوة تبوك من خلال سورة التّوبة
دراسة وصفيّة تحليليّة

د. مبارك إبراهيم التّجاني حسب الله
الأستاذ المشارك في جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية

مستخلص:

تأتي أهمّيّة موضوع البحث من أنّ المنافقين هم الأخطر على الأُمّة؛ لذلك يهدف البحث إلى بيان التّصوير القرآني لأقوالهم وأفعالهم، وفضح دواخلهم، ودحض حُججهم، وبيان كيفيّة الأمن من شرّهم ومكرهم.

عرّفتُ النّفاق لغة واصطلاحاً، ثُمّ تناولتُ في البحث أعمال الجوارح لفئة المنافقين في غزوة تبوك من خلال سورة التّوبة، مبتدئاً بجارحة اللّسان التي يندرج تحتها: الحلف بالله كذباً، والاستئذان من النّبيّ ﷺ خوفاً من القتال، وإثارة الفتنة، وأذى النّبيّ ﷺ وصحابته، والإساءة إليهم، والأمر بالمنكر، والنّهي عن المعروف، والاعتذار عن التّخلُّف بعد نهاية المعركة. وتناولتُ في إطار أعمال الجوارح الأخرى من غير اللّسان: الانصراف عند الأمور الجامعة، والكُفْر بالله ورسوله، وإتيان الصّلاة على كَسَل، وابتغاء الفتنة، ومحادّاة الله ورسوله.

وفي إطار أعمال القلوب للفئة المشار إليها تناولتُ من صفاتهم: الرّيب، والشّكّ، وابتغاء الفتنة، والحقد الدّفين على الرّسول ﷺ والمؤمنين، والعُجب بالمال والولد، وشدّة الهروب من المواجهة، وعدم القناعة، والخوف من الفضيحة، والاستهزاء بصفة الإيمان، والبُخل، ونسيان الله، والفسق، والفرح بالتّخلُّف عن رسول الله، وكُرْه الجهاد في سبيل الله، والخشية من النّاس أكثر من الله.

وقد توصلتُ إلى نتائج، أهمّها: أنّ الكُفْر والنّفاق ملّة واحدة في مختلف الأزمنة والأمكنة، وأنّ النّفاق هو أكبر عوائق تقدُّم الأُمم، وعامل أساس ورئيس في تثبيطها والقعود بها.

Abstract

The significance of this study stems from the fact that hypocrisy represents one of the gravest threats to the Muslim community. Accordingly, the study aims to examine the Qur'anic portrayal of the statements and actions of the hypocrites, to expose their inner motives, refute their arguments, and clarify the means of safeguarding against their harm and deception.

The study begins by defining hypocrisy both linguistically and technically. It then analyzes the outward actions of the hypocrites during the Battle of Tabuk, as presented in Surat al-Tawbah. The discussion first focuses on actions related to speech, including: swearing falsely by God, seeking permission from the Prophet ﷺ out of fear of combat, stirring discord, harming and maligning the Prophet ﷺ and his Companions, enjoining what is wrong and forbidding what is right, and offering excuses for remaining behind after the conclusion of the campaign.

The research further examines other outward actions not related to speech, such as withdrawing from collective affairs, disbelief in God and His Messenger, performing prayer with reluctance, seeking discord, and opposing God and His Messenger.

With regard to the inward actions of the heart, the study addresses several defining characteristics of the hypocrites, including doubt and skepticism, the pursuit of discord, deep-seated resentment toward the Prophet ﷺ and the believers, pride in wealth and offspring, extreme avoidance of confrontation, lack of contentment, fear of exposure, mockery of faith, miserliness, forgetfulness of God, moral corruption, rejoicing at remaining behind the Messenger of God, aversion to striving in the cause of God, and fearing people more than God.

The study concludes with several key findings, most notably that disbelief and hypocrisy constitute a single ideological entity across different times and places, and that hypocrisy is among the greatest obstacles to the progress of nations, serving as a fundamental factor in their stagnation and decline.

مُقَدِّمَة:

إنّ المنافقين هم أشدّ أعداء الأُمّة الإسلاميّة، وأخطرهم عليها، فهم يتلوّنون حسب البيئة، يظنّهم المؤمن عوناً له، وهم عونٌ عليه، يحسبهم له ناصحين، وهم هلاكه ودماره، ساعون في الأرض بالفساد. قلّما يخلو منهم مجتمعٌ أو نادٍ، يعملون من وراء الكواليس، ومن خلف الصّفوف. كما أنّ من هؤلاءِ مَنْ قد يتّخذ من التّديُّن والتّعبُّد والمجاهدة ستاراً لأعمالهم ونفاقهم، فهم يعملون في الخفاء، ويَنْدَسّون بين صفوف المؤمنين، يوقعون الفتنة بينهم، ويشيعون الفشل في صفوفهم.

تناول القرآن الكريم النّفاق في بداية سورة البقرة في ثلاث عشرة آية[1]، وذلك بياناً للمنافقين في عقيدتهم وسلوكياتهم وأقوالهم وأفعالهم. وما هذه البداية التّفصيليّة في بدايات القرآن الكريم إلاّ لخطورة المنافقين على مجتمع المسلمين. وفي سورة التّوبة جلّى الله تعالى كثيراً من أوصاف المنافقين، وبيّنها ووضّحها، وهتك أستارهم وكشفها. لهذا تُسمّى هذه السّورة بالفاضحة؛ لأنّها فضحت المنافقين. وقد خاف منها المنافقون خوفاً عظيماً، حتّى خافوا أنْ يُسمُّوا بأسمائهم من كثرة مابيّن الله من أوصافهم بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [التّوبة: 49]، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التّوبة: 58]، ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التّوبة: 61]، ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥﴾ [التّوبة:

---

(1) وهي الآيات (8-20) من سورة البقرة.

.[75

اخترتُ سورة التّوبة لأنّها تبحث عن حال المنافقين وما يخزيهم ويفضحهم وينكل بهم، ويشرّدهم ويدمدم عليهم، ومن أسمائها: المبعثرة، المشرّدة، المخزية، الفاضحة المثيرة، الحافرة، المدمدمة، سورة العذاب، المنكّلة. وكُلّها ترجع الى معنى واحد، ففيها توبة على المؤمنين، والتبرئة من النّفاق، والبحث عن حال المنافقين وإثارة حالهم...(1)".

يأتي هذا البحث مشاركة من الباحث في إجلاء وبيان التّصوير القرآني لأعمال المنافقين في غزوة تبوك من خلال سورة التّوبة، وقد قسّمته إلى مُقَدِّمَة ومبحثين تحتهما مطالب- تندرج تحتها موضوعات- وخاتمة تشمل النّتائج والتّوصيات.

أسباب اختيار الموضوع:

وقع اختياري على هذا الموضوع للأسباب التّالية:

1. رغبتي للمشاركة في إثراء المكتبة الإسلاميّة بالتّآليف في مجال تخصُّصي، إذ إنّ الدّراسات القرآنيّة هي مجال علمي وعملي.
2. استقرائي للآيات التي تتحدّث عن المنافقين في سورة التّوبة وتبويبها على نحو لم أجده في الدّراسات السّابقة.
3. القيام بواجبي الدّعوي في تبصير الأُمّة بالأخطار المحدقة التي تواجهها، وإحساسي العميق بخطورة دور المنافقين في تخذيل وتثبيط الأُمّة في (مختلف

(1) إعراب القرآن وبيانه، محي الدّين بن أحمد مصطفى درويش، طبعة 1415 هـ، ج 4، ص 49.

أطرافها) بالحروب التي تعيشها.

4. حرصي على تطوير الذّات في مجال التّفسير وعلوم القرآن.

مشكلة البحث:

التّصوير القرآني لأقوال وسلوكيّات وأعمال المنافقين في غزوة تبوك من خلال سورة التّوبة والتي من أسمائها الفاضحة؛ لأنّها كشفت دواخلهم ودحضت حُججهم وأباطيلهم.

أسئلة البحث:

الأسئلة التي يجيب عنها هذا البحث:

- لماذا بحث هذا الموضوع في سورة مُعيّنة وفي غزوة مُحدّدة؟
- ما أوجه الشّبه بين المنافقين في كلّ زمان ومكان؟
- ما طريقة تفكيرهم؟
- كيف يخالف ظاهرهم باطنهم؟
- ما خطورتهم على مجتمعات المسلمين؟
- كيف فضحهم الله ودحض حُججهم وأباطيلهم؟
- كيف ندرأ شرورهم ونأمن مكرهم؟

أهمية الموضوع:

تبدو أهميّة هذا الموضوع ممّا يلي:

1. عناية القرآن الكريم بهذا الموضوع واهتمامه به خاصّة في سورة التّوبة.

2. وجود المنافقين في كُلّ زمان ومكان، وخطورتهم على الأفراد والمجتمعات والدّولة.
3. جهل كثير من أفراد الأُمّة بصفات المنافقين وأقوالهم وأفعالهم.
4. خطورة دور المنافقين الكبير في دعم الكافرين وتثبيط وتخذيل المؤمنين عند الحروب التي تعاني منها أجزاء واسعة من الأُمّة الإسلاميّة.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث للوصول إلى:

1. بيان التّصوير القرآني لأقوال المنافقين وأفعالهم في غزوة تبوك من خلال سورة التّوبة وفضحهم.
2. بيان طريقة تفكير المنافقين وما في قلوبهم ودواخلهم من علاّم الغيوب العالم بذات الصّدور.
3. الردّ الربّاني عليهم في دحض حُججهم وأباطيلهم.
4. تبصير الأُمّة بعدوّها غير المعلن، وبيان صفاته وأساليبه.
5. الاتّعاظ والاعتبار من السّابقين؛ لإضاءة طريق المعاصرين واللاّحقين.
6. كشف تطابق صفات المنافقين في كُلّ الأمكنة والأزمنة.

منهج البحث:

المنهج الذي كتبتُ به البحث هو المنهج الاستقرائي الوصفي التّحليلي. وسلكتُ الطّريقة التّالية في الكتابة:

1. الاعتماد على كتب التّفسير، والحرص على تنوُّعها وتعدُّدها، والاستفادة من أكبر عدد من المفرّ ين.
2. العزو إلى المصادر والمراجع، مع بيان المُؤلّف والجزء والصّفحة.
3. كتابة الآيات بالرّسم العثماني.
4. تخريج الأحاديث من كُتُب السُّنّة وصحاحها وأسانيدها.

الدّراسات السّابقة:

عثرتُ على ثلاث دراسات سابقة تناولت هذا الموضوع، هي:

1. صفات المنافقين التعبُّدية من خلال سورة التّوبة، للدّكتور/ علي محمد عبد الرّحمن باكرمان.
2. صفات المنافقين في سورة التّوبة، للدّكتور/ عبد السّلام غسّان حمدون.
3. أسباب النّفاق وأساليب المنافقين، للدّكتور/ محمد بن سريع بن عبد الله السّريع.

يختلف بحثي عن هذه الموضوعات في معنى ومضمون عناوينها، وفي التّرتيب والتّبويب، وفي التّناول التّفسيري والتّحليلي، وفي منهج هذا التّناول وفي عدد مفردات البحث، وعدد المصادر، والمراجع ونوعيّتها. وقد استفدتُ منها في رصد العناوين والموضوعات للبحث.

هيكل البحث:

يشتمل هذا البحث على:

مُقَدِّمَة

المبحث الأوّل: أعمال الجوارح:

المطلب الأوّل: جارحة اللّسان

المطلب الثّاني: أعمال الجوارح من غير اللّسان

المبحث الثّاني: أعمال القلوب

المطلب الأوّل: الشّكّ والرّيب وابتغاء الفتنة والحقد الدّفين

المطلب الثّاني: الكُفْر والعُجْب والخوف الشّديد

المطلب الثّالث: عدم القناعة والخوف من الفضيحة والبُخْل والفسق

المطلب الرّابع: الفرح بالتّخلُّف عن رسول الله وعدم العلم بحدود الله والخوف من النّاس

خاتمة، تشمل: النّتائج والتّوصيات.

المبحث الأوّل

أعمال الجوارح

أُقدّم بين يدي هذا المبحث تمهيداً موجزاً فيه بيان معنى النّفاق لغة واصطلاحاً، كما أُبيّن فيه أنواع النّفاق وانقسامه إلى اعتقادي وعملي.

النّفاق لغة يقال: قد نفق به ونافَقَ والنُّفَقَةُ والنَّافِقاء جُحْر الضَّبّ واليَرْبوع[1]، و"النَّفَقُ" -بفتحتين- سرب في الأرض يكون له مخرج من موضع آخر، و"نَافَقَ" اليربوع إذا أتى النّافقاء، ومنه: قيل: "نَافَقَ" الرّجل إذا أظهر الإسلام لأهله وأضمر غير الإسلام وأتاه مع أهله؛ فقد خرج منه بذلك، ومحلّ النّفاق القلب[2].

النّفاق اصطلاحاً إظهار الإيمان باللّسان وكتمان الكُفْر بالقلب[3]. والنّفاق على ضربين[4]:

الأوّل: نفاق اعتقادي: وهو كُفْر أكبر ناقل من الملّة، وهو ستة أنواع: تكذيب الرّسول أو تكذيب بعض ما جاء به أو بغض الرّسول أو بغض ما جاء به أو المسرّة بانخفاض دين الرّسول أو الكراهيّة لانتصار دين الرّسول.

---

(1) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط/ 1، ج 10، ص 357.

(2) المصباح المنير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري، طبعة المكتبة العصريّة، ص 318.

(3) التّعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، طبعة 1405 هـ ص 311.

(4) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسُّنّة، نُخْبة من العلماء، ص 86.

والثّاني: نفاق عملي: وهو كُفْر أصغر لا ينقل من الملّة، إلاَّ أنه جريمة كبيرة وإثم عظيم، ومنه ما ذكره النّبيّ ﷺ في حديثه حين قال: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ)(1).

المطلب الأوّل: جارحة اللّسان:

أولاً: الحلف بالله كذباً:

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التّوبة: 42-43].

لّما رجع النّبيّ ﷺ من غزوة تبوك أظهر الله نفاق قوم. والعَرَض: ما يعرض من منافع الدّنيا. والمعنى: غنيمة قريبة. أخبر عنهم أنّهم لو دُعُوا إلى غنيمة لاتّبعوه(2).

قال الكرماني: أي: لو كان المدعوّ إليه شيءٌ من منافع الدّنيا. والعَرَض: ما يحدث

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، برقم 34، ج 1، ص 21، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، برقم 219، ج 1، ص 56.

(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج 7، ص 231.

من المنافع قريباً، أي: قريب المتناول سهل المأخذ[1]. ونظير هذه الآية من السُّنّة في المعنى قوله ﷺ: (لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَرْقاً[2] سَمِيناً أَوْ مِرْمَاتَيْنِ[3] حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ الْعِشَاءَ)[4].

وفي السّياق نفسه يأتي قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التّوبة: 56]. قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ ويحلف بالله لكم -أيّها المؤمنون- هؤلاء المنافقون كذباً وباطلاً خوفاً منكم: ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ في الدّين والملّة. يقول الله تعالى مكذّباً لهم: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾، أي ليسوا من أهل دينكم وملّتكم، بل هم أهل شكٍّ ونفاقٍ، ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾، يقول: ولكنّهم قوم يخافونكم، فهم خوفاً منكم يقولون بألسنتهم: إنّا منكم؛ ليأمنوا فيكم فلا يُقْتَلوا[5].

وفي موضع ثالث في السّورة نفسها يحاولون يائسين إرضاء المؤمنين مؤكّدين

---

(1) لباب التّفاسير، الكرماني أبو القاسم محمود بن حمزة، تحقيق: أربع رسائل دكتوراة بقسم القرآن وعلومه بكُلّيّة أصول الدّين في جامعة الإمام/ محمد بن سعود الإسلاميّة بالرّياض، تاريخ النّشر بالشّاملة: 28 ذو القعدة 1441هـ، ص 594.

(2) يعني عظماً عليه بقية لحم قليلة.

(3) المرماة -بكسر الميم وفتحها-: ظلف الشاة، أي قدمها، وقيل: ما بين ظلفها.

(4) صحيح البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب وجوب صلاة الجماعة، برقم 618، ج 1، ص 231.

(5) جامع البيان في تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطّبري، ج 14، ص 297.

كذبهم بالحلف، إذ يقول تعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) ﴾[التوبة: 95-96]. بقوله تعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ أخبر عنهم أنهم سيحلفون معتذرين لتُعرِضوا عنهم فلا تؤنبوهم، ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ احتقاراً لهم، ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ أي: خبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ في آخرتهم، ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي: من الآثام والخطايا.

قال البيضاوي: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ فلا تعاتبوهم، ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ ولا توبخوهم، ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ لا ينفع فيهم التأنيب، فإنَّ المقصود منه التطهير بالحمل على الإنابة، وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير، فهو علة الإعراض وترك المعاتبة. ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ من تمام التعليل، وكأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار لا ينفع فيهم التوبيخ في الدنيا والآخرة، أو تعليل ثان والمعنى: أنَّ النار كفتهم عتاباً فلا تتكلفوا عتابهم[1].

وأخبر أنهم وإنْ رضوا عنهم بحلفهم لهم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي: الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله، فإنَّ الفسق هو الخروج، ومنه

(1) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/1، 1418 هـ، ج 3، ص94.

سُمّيت الفأرة: فُوَيسقة لخروجها من جُحرها للإفساد، ويقال: فَسَقَتِ الرّطبة: إذا خرجت من أكمامها[1].

وفي آية أخرى في سورة التّوبة يحلفون بالكذب أنّهم يريدون الحسنى من مسجدهم الضّرار، لكنّ الله يفضحهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (107) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110)﴾[التّوبة: 107-110].

وقصّة مسجد الضّرار قصّة بارزة في غزوة تبوك، لذلك أفرد المنافقون الّذين قاموا بها من بين سائر المنافقين، وخصص لهم حديث مستقلّ بعد انتهاء الاستعراض العام لطوائف النّاس في المجتمع المسلم حينذاك. وهذا المسجد ما يزال يُتّخذ في صور شتّى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتّخذها أعداء هذا الدّين. تتّخذ في صورة نشاط ظاهره للإسلام وباطنه لسحق الإسلام أو تشويهه وتمويهه وتمييعه! وتتّخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدّين عليها لتتترس وراءها وهي ترمي هذا الدّين! وتتّخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكُتُب وبحوث تتحدّث عن الإسلام لتُخدّر القلقين

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج 4، ص 200.

الّذين يرون الإسلام يُذْبَح ويُمْحَق، فتُخدّرهم هذه التّشكيلات وتلك الكُتُب إلى أنّ الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق.

ومن أجل مساجدظلرّ ار الكثيرة هذه يتحتّم كشفها، وإنزال اللافتات الخادعة عنها، وبيان حقيقتها وما تخفيه وراءها للناس. ولنا أُسوة في كشف مسجدظلرّ ار على عهد رسول الله ﷺ بذلك البيان القويطلرّ يح في الآيات السّابقة.

والتّعبير القرآني الفريد يرسم هنا صورة حافلة بالحركة، تنبيء عن مصير كُلّ مسجد ضرار يقام إلى جوار مسجد التّقوى، ويراد به ما أُريد بمسجدظلرّ ار، وتكشف عن نهاية كُلّ محاولة خادعة تخفي وراءها نيّة خبيثة؛ وتطمئن العاملين المُتطّهرين من كُلّ كيد يراد بهم، مهما لبس أصحابه مسوح المصلحين(1):﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾[التّوبة: 109].

ثانياً: الاستئذان من النّبيّ ﷺ خوفاً من القتال:

جاء في سورة التّوبة قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[التّوبة: 43-45].

---

(1) في ظلال القرآن، سيّد قطب، ج 4، ص 79.

جاء في تفسير البغوي: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ قال عمرو بن ميمون: اثنان فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين وأخذه الفدية من أُسارى بدر، فعاتبه الله كما تسمعون. قال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللُّطف!! بدأ بالعفو قبل أنْ يُعيِّره بالذّنب. وقيل: إنَّ الله -عزّ وجلّ- وقّره ورفع محلّه بافتتاح الكلام بالدّعاء له، كما يقول الرّجل لمن يخاطبه إذا كان كريماً عنده: عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي؟ ورضي الله عنك ألا زرتني؟ وقيل معناه: أدام الله لك العفو. ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ أي: في التّخلُّف عنك، ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في أعذارهم، ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: تعلم مَنْ لا عذر له. قال ابن عباس -رضي اللهّ عنهما-: لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين يومئذ[1].

وأورد السّعدي في تفسير هذه الآيات قوله: "يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ أي: سامحك وغفر لك ما أجريت، ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في التّخلُّف، ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ بأنْ تمتحنهم، ليتبيَّن لك الّصادق من الكاذب، فتعذر مَنْ يستحقّ العُذْر ممّن لا يستحقّ ذلك. ثُمّ أخبر أنَّ المؤمنين بالله واليوم الآخر لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم؛ لأنَّ ما معهم من الرّغبة في الخير والإيمان يحملهم على الجهاد من غير أنْ يحثّهم عليه حثٌّ، فضلاً عن كونهم يستأذنون

---

(1) انظر: معالم التّنزيل في تفسير القرآن، للبغوي، دار طيّبة للنّشر والتّوزيع، طبعة 1417 هـ-1997م، ج 3، ص 272، وزاد المسير، جمال الدّين أبو الفرج عبد الرّحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: عبد الرّزّاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، طبعة 1422 هـ، ج 2، ص 263.

في تركه من غير عُذْر، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه، ومن علمه بالمتقين أنّه أخبر أنَّ من علاماتهم أنّهم لا يستأذنون في ترك الجهاد"(1).

ومن أقبح الأعذار: ما اعتذر به الجدّ بن قيس، حيث قال: يا رسول الله، لقد علم النّاس أنّي مستهتر بالنّساء، فإنّي إذا رأيت نساء بني الأصفر افتتنت بهنَّ، فأْذَن لي في التّخلُّف ولا تفتنّي وأنا أُعينك بمالي، فأذن له. ففضحه القرآن وتوعَّده، إذ يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٩﴾ [التّوبة: 49].

والإتيان بأداة الاستفتاح في جُملة: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ للتّنبيه على ما بعدها من عجيب حالهم، إذ عاملهم الله بنقيض مقصودهم، فهم احترزوا عن فتنة فوقعوا في الفتنة. والسّقوط مستعمل مجازاً في الكون، فجاء على وجه الاستعارة، شبَّه ذلك الكون بالسّقوط في عدم التّهيؤ له وفي المفاجأة، باعتبار أنّهم حصلوا في الفتنة في حال أمنهم من الوقوع فيها، فهم كالسّاقط في هُوّة على حين ظنَّ أنه ماش في طريق سهل، ومن كلام العرب: على الخبير سقطت. وتقديم المجرور على عامله للاهتمام به؛ لأنّه المقصود من الجُمْلة(2).

(1) تفسير السّعدي، تحقيق: عبد الرّحمن بن معلا اللّويحق، مؤسّسة الرّسالة، طبعة 1420هـ-2000م، ج 1، ص 338.

(2) التّحرير والتّنوير، محمد الطّاهر بن عاشور، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، طبعة 1984م، ج 10، ص 221.

وتظلّ قلوب المنافقين ممتلئة بالخوف كُلّما نزلت سورة تأمر بالإيمان والجهاد مع رسول الله ﷺ، المشهد الذي يُصوّره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [التوبة: 86-87].

يقول الحقّ -جلّ جلاله-: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ أو بعضها في شأن الجهاد قائلة: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ﴾ وحده، ﴿وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ﴾ ﷺ، ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ ﴾ في التّخلُّف ﴿ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾ أي: أولوا الغنى والسّعة، ﴿ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ الّذين قعدوا لعُذْر، ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾ مع النّساء، جمع خالفة، وقد يقال: الخالفة للذي لا خير فيه، ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ بالكُفْر والنّفاق، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ما في الجهاد وموافقة الرّسول من السّعادة، وما في التّخلُّف عنه من الشّقاوة(1).

ويُعرّض القرآن بهذا القعود في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [التوبة: 90]، "وجاء جماعة من أحياء العرب حول (المدينة) يعتذرون إلى رسول الله ﷺ ويُبيّنون له ما

---

(1) انظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العبّاس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان ود. حسن عبّاس زكي، القاهرة، طبعة 1419 هـ، ج 2، ص 414، وتيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنان، للسّعدي، ج 1، ص 347.

هم فيه من الضّعف وعدم القُدْرة على الخروج للغزو، وقعد قوم بغير عُذْر أظهروه جرأة على رسول الله ﷺ، سيصيب الّذين كفروا من هؤلاء عذاب أليم في الدّنيا بالقتل وغيره، وفي الآخرة بالنّار"(1).

جاء في "التّفسير الواضح": "وجاء المعتذرون من الأعراب ليأذن لهم النّبيّ ﷺ في التّخلّف عن النّفير العامّ في غزوة تبوك، وهم قوم عامر بن طفيل، جاءوا يقولون: يا رسول الله! إنْ نحن غزونا تَغِيرُ علينا أعراب طي، فقال لهم رسول الله: (قد أنبأني الله من أخباركم وسيُغني الله عنكم)(2). وقال ابن عبّاس: "هم قوم تخلّفوا، فأذن لهم النّبيّ ﷺ، والظّاهر أنّ عُذْرهم كان حقّاً، والآية تحتمل هذا وذاك"(3).

والقرآن الكريم يوضّح -بجلاء- أنّ المؤاخذة والعقاب والسّبيل إلى العذاب لمن يعتذر لرسول الله ﷺ من غير عُذْر حقيقي، قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ

(1) التّفسير الميّسّر، نُخْبة من أساتذة التّفسير، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشّريف، السّعودية، طبعة 1430هـ-2009م، ج 1، ص 201.

(2) الحديث أورده صاحب التّفسير الواضح، ولم أعثر على تخريجه في كُتُب السُّنّة.

(3) التّفسير الواضح، ج 1، ص 918.

قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [التوبة: 91-93].

ما زال السّياق الكريم في المُخَلَّفين من المنافقين وغير المنافقين، فقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ ﴾ أي الطّريق إلى عقاب المخلَّفين ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ على الّذين يستأذنونك في التّخلُّف عن الغزو وهم أغنياء، أي ذوو قُدْرة على النّفقة والسّير، ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ أي النّساء، ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ بسبب ذنوبهم فهم لذلك لا يعلمون أنَّ تخلُّفهم عن رسول الله لايجُدِيهم نفعاً، وأنه يجرّ عليهم البلاء الذي لا يطيقونه. هؤلاءهُم الّذين لكم سبيل على عقابهم ومؤاخذتهم، لا على الّذين لا يجدون ما ينفقون وطلبوا منك حملاناً فلم تجد ما تحملهم عليه، فرجعوا إلى منازلهم وهم يبكون حزناً. هذا ما دلَّت عليه الآية الأولى (93). أمّا الآيات الثّلاث بعدها؛ فهي في المُخَلَّفين من المنافقين يخبر تعالى عنهم فيقول ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ يطلبون العُذْر منكم إذا رجعتم إلى المدينة من غزوكم، ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ قل لهم يا رسولنا: لا تعتذروا؛ لأنّنا لا نؤمن لكم، أي لا نصدّقكم فيما تقولونه، لأنَّ الله تعالى قد نَبَّأَنا من أخباركم، ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ إنْ أنتم تبتم فأخلصتم دينكم لله أو أصررتم على كُفْركم ونفاقكم، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ وستُردُّون بعد موتكم إلى عالم الغيب والشّهادة وهو الله تعالى ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ فينبئكم يوم القيامة بعد بعثكم بما كنتم تعملون من

حسنات أو سيئات ويجزيكم بذلك الجزاء العادل[1].

ثانياً: إثارة الفتنة باللّسان:

قال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[التّوبة: 47].

أخبر الله تعالى أنّ لا منفعة للمسلمين في خروج المنافقين معهم، بل عليهم ضرّة منهم، ثم قال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم ﴾ يعني: المنافقين لو خرجوا معكم، ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ يعني: فساداً، ويقال: شرّاً وجُبْناً، ﴿ وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ ﴾ يقال: ساروا بينكم، ويقال: الإيضاع في اللُّغة هو إسراع الإبل، كما قال ﷺ حين أفاض من عرفات: (أيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالوَقَارِ، فَإِنَّ البِرَّ لَيْسَ فِي إِيضَاعِ الإِبِلِ)[2]. يعني: أنّ المنافقين لو خرجوا معكم يسرعون الإبل فيما بينكم ويؤذونكم. ثم قال: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ يعني: يطلبون منكم الشّرّك، ويطلبون هزيمتكم وعيوبكم، ويفشون سرّكم، ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ يعني: وفي عسكركم عيون وجواسيس للمنافقين، ويقال:

(1) أيسر التّفاسير لكلام العلي الطبير، أبو بكر جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر الجزائري، ج 2، ص 414.

(2) سُنن النّسائي، كتاب مناسك الحجّ، باب فرض الوقوف بعرفة، برقم 3018، ج 5، ص 257، ومسند الإمام/ أحمد بن حنبل، مسند الأنصار، حديث أسامة بن زيد حبّ رسول الله ﷺ، برقم ٢١٧٥٦، ج 36، ص90.

وفيكم مَنْ يسمع ما يقوله المنافقون ويقبلون منهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ يعني: بالمنافقين. وهذا وعيد لهم، يعني: عليمٌ بعقوبتهم"[1].

وفي "تفسير المنار": "﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ هذا التفات عن خطاب الرّسول ﷺ في أمرهم إلى خطاب جماعة المؤمنين الّذين معه، يقول: لو خرج هؤلاء المنافقون المستأذنون في القعود في جماعتكم -أيّها المؤمنون- ما زادوكم شيئاً من الأشياء إلا خبالاً، أي: اضطراباً في الرّأي، وفساداً في العمل، وضعفاً في القتال، وخللاً في النّظام. فإنَّ الخبال هو الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطراباً -كالجنون والمرض المؤثّر في العقل والفكر-. والمراد: ما زادوكم قوّة ومنعة وإقداماً -كما هو شأن القوّة العدديّة المُتّحدة في العقيدة والمصلحة- بل ضعفاً وفشلاً ومفسدة، كما حصل في غزوة حُنَيْنٍ، فإنَّ المنافقين ولّوا الأدبار في أول المعركة، وتبعهم ضعفاء الإيمان من المُؤلَّفة قلوبهم من طُلقاء فتح مكّة، فاضطرب لذلك الجيش كُلّه، وفسد نظامه، فولّى أكثر المؤمنين معهم بلا روية ولا تدبُّر، كما هو شأن جماعات البشر في مثل هذه الأحوال. ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾ الوضع والإيضاع كما في "التّاج": أهون سير الدّوابّ، وقيل: ضرب من سير الإبل دون الشدّ، وقيل: هو فوق الخبب. قال الأزهري: ويقال: وضع الرّجل إذا عدى، أي: أسرع، وهو مجاز، ويقال: أوضع راحلته. ا هـ. وخلال

(1) بحر العلوم، أبو اللّيث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السّمرقندي، تاريخ النّشر بالشّاملة: 8 ذو الحِجّة 1431هـ، ج 2، ص 63.

الأشياء: ما يفصل بينها من فروج ونحوها، والمعنى: ولأوضعوا ركائبهم -أو- ولأسرعوا في الدّخول في خلالكم وما بينكم سعياً بالنّميمة، وتفريق الكلمة ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: حال كونهم يبغون بذلك أنْ يفتنوكم بالتّشكيك في الدّين، والتّثبيط عن القتال، والتّخويف من قوّة الأعداء، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: وفيكم أناس من ضعفاء الإيمان أو ضعفاء العزم والعقل كثيرو السّمع لهم؛ لاستعدادهم لقبول وسوستهم، وقيل: أناس نمّامون يسمعون لأجلهم ما يعنيهم من أقوالكم فيلقونها إليهم. وهو بعيد، وإنْ رجّحه الطّبري وقدّمه الزّمخشري"[1].

ثالثاً: أذى النّبيّ ﷺ وصحابته والإساءة إليهم:

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾ [التّوبة: 61].

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ والأذن آلة السّماع، للمبالغة في وصفه، وكأنّ جملته: أُذُنٌ سامعةٌ، كما يقال للجاسوس: عين. وإيذاؤهم له: هو قولهم فيه: هو أذن، ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ مثل قولك: رجل صدق، وشاهد عدل، تريد الجودة والصّلاح، كأنّه قيل: نعم هو أُذُن، ولكن نِعْمَ الأُذُن، ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ أي يُصدّق بالله؛، لما قام عنده من

---

(1) تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، طبعة 1990م، ج 10، ص 408.

الأدلة، ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقبل من المؤمنين الخُلَّص من المهاجرين والأنصار، لا من غيرهم، ويُصدِّقهم بسبب إيمانهم، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ أي وهو رحمة لِمَنْ آمن منكم، أي أظهر الإيمان -أيها المنافقون-، حيث يسمع منكم، ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يفضح أسراركم، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين، فهو أُذُنٌ -كما قلتم- إلَّا أنه أُذُنُ خير لكم، لا أُذُنُ سُوء، ومستمع خير، لا مستمع شر"[1].

ومن طعنهم في النبيِّ ﷺ: اتِّهامه في عدالته، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة: 58]. عن أبي سلمة عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْماً أَتَاهُ ذُو الخُوَيْصِرَةِ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله اعْدِلْ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟ قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ). فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ: يَا رَسُولَ الله ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبْ عُنُقَهُ. قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (دَعْهُ، فَإِنَّ لَهُ أَصْحَاباً يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاتَهُ مَعَ صَلاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَأُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ)[2].

وفي تفسير آية اللّمز هذه أورد الصّابوني ما يُؤكِّد ما ذُكِرَ في سبب النّزول: "أي ومنهم مَنْ يعيبك يا محمد في قسمة الصّدقات، فإنْ أُعطوا منها رضوا، أي: فإنْ

---

(1) التّفسير المنير، للزّحيلي، ج 10، ص 281.

(2) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النُّبوّة في الإسلام، برقم ٣٤١٤، ج 3، ص 1321، وصحيح مسلم، كتاب الزّكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، برقم 2505، ج 3، ص 112.

أعطيتهم من تلك الصّدقات استحسنوا فعلك، وإنْ لم يُعْطَوا منها إذا هم يسخطون أي: وإنْ لم تعطهم منها ما يرضيهم سخطوا عليك وعابوك. قال المفسّرون: كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حُنَيْن، فجاء اليه رجل من المنافقين يقال له: ذو الخويصرة، فقال: اعدل يا محمد فإنّك لم تعدل، فقال ﷺ: (ويلك إنْ لم أعدل فمن يعدل؟)"[1].

ومن إساءتهم للنّبيّ ﷺ: اتّهامه بأنّه كاهن وكذّاب، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [التّوبة: 65].

ورد عن قتادة أنَّ سبب نزول هذه الآية "أنَّ ناساً من المنافقين قالوا في غزوة تبوك: يرجو هذا الرّجل أنْ يفتح قصور الشّام وحصونها!! هيهات، فأَطلَع الله نبيَّه ﷺ على ذلك، فأتاهم فقال: قلتم كذا وكذا، قالوا: إنّما كُنّا نخوض ونلعب، فنزلت قوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ [التّوبة: 74] الآية.

كما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس -رضي الله عنهما- قال: كان الجلاّس بن سويد بن الصّامت ممن تخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وقال: لئن كان هذا الرّجل صادقاً لنحن شرٌّ من الحمير، فرفع عمير بن سعيد ذلك إلى رسول الله ﷺ، فحلف الله ما قلت، فأنزل الله ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا

(1) صفوة التّفاسير، محمد علي الصابوني، ج 1، ص 363.

﴿بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾، فزعموا أنّه تاب وحسنت توبته"(1).

ومن إساءتهم لصحابة رسول الله ﷺ لمزهم في الصّدقات، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التّوبة: 79] فقد أورد بن عاشور في سبب نزول هذه الآية: "نزلت بسبب حادث حدث في مُدّة نزول السّورة، ذلك أنّ النّبيّ ﷺ حثّ الناس على الصّدقة، فجاء عبد الرّحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وجاء عاصم بن عدي بأوسق كثيرة من تمر، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر، فقال المنافقون: ما أعطى عبد الرّحمن وعاصم إلاّ رياء، وأحبّ أبو عقيل أنْ يُذكّر بنفسه ليُعْطَى من الصّدقات، فأنزل الله فيهم هذه الآية"(2).

رابعاً: أمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف:

قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التّوبة: 67-68].

قال صاحب "في ظلال القرآن": "المنافقون والمنافقات من طينة واحدة، وطبيعة واحدة. المنافقون في كلّ زمان وفي كلّ مكان تختلف أفعالهم وأقوالهم، لكنّها ترجع إلى

(1) لباب النّقول في أسباب النّزول، ج 1، ص 106.

(2) التّحرير والتّنوير، ابن عاشور، ج 10، ص 162.

طبع واحد، وتنبع من مَعِين واحد. سُوء الطّوية، ولؤم السّريرة، والغمز واللّمز، والضّعف عن المواجهة، والجُبْن عن المصارحة. تلك سماتهم الأصليّة. أمّا سلوكهم؛ فهو الأمر بالمنكر والنّهي عن المعروف، والبُخْل بالمال إلّا أنْ يبذلوه رئاء النّاس. وهم حين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف يستخفّون بهما، ويفعلون ذلك دسّاً وهمساً، وغمزاً ولمزاً؛ لأنّهم لا يجرؤون على الجهر إلّا حين يأمنون. إنّهم نسوا الله، فلا يحسبون إلّا حساب النّاس وحساب المصلحة، ولا يخشون إلّا الأقوياء من النّاس، يذلّون لهم ويداورونهم، فنسيهم الله، فلا وزن لهم ولا اعتبار. وإنّهم لكذلك في الدّنيا بين النّاس، وإنّهم لكذلك في الآخرة عند الله. وما يحسب النّاس حساباً إلّا للرّجال الأقوياء الصّرحاء، الّذين يجهرون بآرائهم، ويوقفون خلف عقائدهم، ويواجهون الدّنيا بأفكارهم، ويحاربون أو يسالمون في وضح النّهار. أولئك ينسون النّاس ليذكروا إله النّاس، فلا يخشون في الحقّ لومة لائم، وأولئك يذكرهم الله فيذكرهم النّاس ويحسبون حسابهم"(1).

ومن أمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف: التّثبيط والتّخذيل، قال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١ ﴾ [التّوبة: 81].

أورد الطّبري في تفسيرها: "قوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ ﴾ ذلك أنّ النّبيّ ﷺ

(1) في ظلال القرآن، سيّد قطب، ج 4، ص 46.

استنفرهم إلى هذه الغزوة، وهي غزوة تبوك، في حرّ شديد، فقال المنافقون بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحرّ، فقال الله لنبيّه محمد ﷺ: ﴿قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ قل لهم يا محمد: نار جهنم التي أعدّها الله لمن خالف أمره وعصى رسوله، ﴿أَشَدُّ حَرّٗاۚ﴾ من هذا الحرّ الذي تتواصون بينكم أنْ لا تنفروا فيه. يقول: الذي هو أشد حرّاً أحرى أنْ يُحْذَر ويُتَّقى من الذي هو أقلّها أذىً، ﴿لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾ يقول: لو كان هؤلاء المنافقون يفقهون عن الله وعظَه، ويتدبَّرون آي كتابه، ولكنّهم لا يفقهون عن الله، فهم يحذرون من الحرّ أقلّه مكروهاً وأخفَّه أذىً، ويواقعون أشدَّه مكروهاً وأعظمه على مَنْ يصلاه بلاءً(1).

خامساً: عدم القُدْرة على المواجهة:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ۝١٢٧﴾ [التّوبة: 127].

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾ تغامزوا بالعيون إنكاراً لها وسخرية أو غيظاً لما فيها من عيوبهم، ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾ أي: يقولون هل يراكم أحد إنْ قمتم من حضرة الرّسول ﷺ فإنْ لم يرهم أحد قاموا، وإنْ يرهم أحد أقاموا، ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ﴾ ثُمّ انصرفوا عن حضرته مخافة الفضيحة، ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ صرف الله قلوبهم عن الإيمان، وهو يحتمل الأخبار والدّعاء، ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ أي بسبب

(1) جامع البيان في تأويل آي القرآن، الطّبري، ج 14، ص 367.

أنّهم قوم لا يفقهون لسوء فهمهم أو لعدم تدبُّرهم(1).

قال الماتريدي: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ يحتمل خلق الله منهم انصرافهم فأُضيف إليهطرّ ف، ويشبه أنْ يكون قوله: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عقوبة، أي: عاقبهم الله بصرف قلوبهم باعتقادهم العناد وردّهم الحُجج وتركهم القَبول(2).

سادساً: تصريح المنافقين بها في دواخلهم:

قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (50) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51)﴾ [التّوبة: 50-51].

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ يُعْلِم -تبارك وتعالى- نبيّه بعداوة هؤلاء له؛ لأنّه مهما أصابه من حسنة، أي: فتح ونصر وظفر على الأعداء، ممّا يسرّه ويسرّ أصحابه، ساءهم ذلك، ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: قد احترزنا من متابعته من قبل هذا، ﴿وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾. فأرشد الله تعالى رسوله -صلوات الله وسلامه عليه- إلى جوابهم في عداوتهم هذه التّامّة، فقال: ﴿قُل﴾ أي: قُلْ لهم، ﴿لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: نحن تحت مشيئة الله وقَدَره، ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: سيّدنا وملجؤنا، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ونحن

---

(1) تفسير البيضاوي، ج 3، ص 181.

(2) تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السُّنّة)، أبو منصور الماتريدي محمد بن محمد بن محمود، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلميّة، بيروت-لبنان، طبعة 1426 هـ-2005م، ج 5، ص 516.

متوكّلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل[1].

سابعاً: الاعتذار عن التّخلُّف بعد نهاية المعركة:

هكذا هم المنافقون، إساءة في الظّنّ، وإساءة في القول، وإساءة في الفعل، ثُمّ يعتذرون محاولة يائسة لتبييض وجوههم، قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [التّوبة: 94].

قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ يعني المنافقين، ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي لن نصدّقكم، ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي أخبرنا بسرائركم، ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ فيما تستأنفون، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يجازيكم بعملكم[2].

جاء في "تفسير المراغي": "﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أي سيعتذر إليكم -أيّها المؤمنون- أولئك الذين رضوا بأنْ يكونوا مع الخوالف، وهم أغنياء أصحّاء لا عُذْر لهم عن التّخلُّف عن الغزو وغيره من سيئاتهم عند رجوعكم من السّفر، ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي قل لهم -أيّها الرّسول-: لا تعتذروا، إنّا

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج 4، ص 161.

(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج 8، ص 280.

لن نصدّقكم في معاذيركم أبداً، ولن نطمئنّ إليكم"[1].

ثُمّ بيّنَ المسّبب في عدم تصديقهم فقال: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي قد أنبأنا الله بوحيه إلى رسوله بعض أخباركم التي تسرّونها في ضمائركم وهي مخالفة لظواهركم التي تعتذرون بها، ونبأ الله هو الحقّ الذي لا شكّ فيه، ومَنْ عرف الحقّ لا يقبل الباطل ولا يُصدّق الكاذب.وإنّما قال: نبّأنا ولم يقل: نبّأني إيماءً إلى أنّه أمره أنْ يُنبّيء بذلك أصحابه، ولم يكن هذا النّبأ خاصّاً به، كما أنّ اعتذارهم للجميع يقتضي أنْ يكونوا كُلّهم عالمين بما فضحهم الله به. وفى هذا من التّشهير بهم والخزي لهم ما لا خفاء فيه. ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي وسيرى الله عملكم ورسوله فيما بعد، وهو الذي سيدلّ إمَّا على إصراركم على النّفاق أو على التّوبة والإنابة إلى ربكم، وأمَّا أقوالكم؛ فلا يعتدّ بها، مهما وكّدتموها بالأيمان، فإنْ أنتم تُبْتم وأَنَبتم إلى ربّكم، وشهد لكم عملكم بصلاح طويّتكم؛ فإنّ الله يتقبّل منكم توبتكم، ويغفر لكم حوبتكم، ويعاملكم الرّسول بما يعامل به المؤمنين الّذين أخلصوا وصدّقوا وشهدت لهم أعمالهم بذلك، وإنْ أنتم أبيتم إلاّ الإصرار على النّفاق، وإلاّ الاعتماد على رواج سوق الكذب بتلك الأيمان التي تحلفونها؛ فسيعاملكم الرّسول بما أمره الله به من جهادكم والإغلاظ عليكم كإخوانكم الكُفَّار المجاهرين. وفى هذا إيماءٌ إلى الرّغبة في توبتهم حين سنوح الفرصة.

(1) تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، طبعة 1365 هـ-1946م، ج 11، ص 5.

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ثُمّ تردون يوم القيامة إلى عالم الغيب والشّهادة الذي يعلم ما تكتمون وما تظهرون، فينبئكم حينئذ بما كنتم تعملون، ويجازيكم عليه بما تستحقّون، وهو ما أوعدكم به في كتابه الكريم في هذه السّورة وفي غيرها(1).

المطلب الثّاني: أعمال الجوارح من غير اللّسان:

أولاً: إهلاك النّفس:

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [التّوبة: 42]

قال الرّازي: "هذه الآية نزلت في المنافقين الّذين تخلّفوا عن غزوة تبوك، ومعنى الكلام أنّه لو كانت المنافع قريبة والسّفر قريباً لاتّبعوك طمعاً منهم في الفوز بتلك المنافع، ولكن طال السّفر فكانوا كالآيسين من الفوز بالغنيمة؛ بسبب أنّهم كانوا يستعظمون غزو الروم، فلهذا السّبب تخلّفوا. ثُمّ أخبر الله تعالى أنّه إذا رجع من الجهاد يجدهم يحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، إمّا عندما يعاتبهم بسبب التّخلّف، وإمّا ابتداء على طريقة إقامة العُذْر في التّخلّف. ثُمّ بيّنَ تعالى أنّهم يهلكون أنفسهم بسبب ذلك الكذب والنّفاق. وهذا يدلُّ على أنَّ الأيمان الكاذبة توجب الهلاك. ثُمّ قال: والله

(1) تفسير المراغي، ج 11، ص 5.

يعلم إنّهم لكاذبون في قولهم: ما كُنّا نستطيع الخروج، فإنّهم كانوا مستطيعين الخروج"[1].

وفي "تفسير السّعدي": "لو كان خروجهم لطلب العرَض القريب، أي: منفعة دنيويّة سهلة التّناول، وكان السّفر سفراً قاصداً، أي: قريباً سهلاً لاتّبعُوكَ؛ لعدم المشقّة الكثيرة، ولكن بَعُدَتْ عليهم الشُّقَّةُ، أي: طالت عليهم المسافة وصعب عليهم السّفر، فلذلك تثاقلوا عنك. وليس هذا من أمارات العبوديّة، بل العبد حقيقة هو المُتعبِّد لربّه في كُلّ حال، القائم بالعبادة السّهلة والشّاقّة، فهذا العبد لله على كُلّ حال"[2].

ثانياً: الاستئذان عند الأمور الجامعة:

الاستئذانُ قولٌ لكنّه يتبعه عمل، لذلك أوردناه في الأقوال والأعمال، قال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[التّوبة: 44-45].

في الآية تنبيه على أنّه ينبغي أنْ يستدلّ -عليه الصّلاة والسّلام- باستئذانهم على حالهم ولا يأذن لهم، أي ليس من شأن المؤمنين وعادتهم أنْ يستأذنوك في أنْ يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، فإنَّ الخُلّص منهم يبادرون إليه من غير توقُّف على الإذن، فضلاً عن

(1) مفاتيح الغيب أو التّفسير الكبير، فخر الدّين الرّازي أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التّيمي، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، طبعة 1420 هـ ج 16، ص 57.

(2) تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنان، السّعدي، ج 1، ص 383.

أنْ يستأذنوك في التّخلُّف عنه. والمعنى لا يستأذنك المؤمنون في التّخلُّف كراهة الجهاد، والنّفي مُتوجّه للاستئذان والكراهة معاً، وقال بعض: إنّه مُتوجّه إلى القيد، وبه ويمتاز المؤمن من المنافق، وهو وإنْ كان في نفسه أمراً خفيّاً لا يوقف عليه باديء الأمر، لكنّ عامّة أحوالهم لما كانت منبئة عن ذلك جُعل أمراً ظاهراً مُقرّراً. وقيل: الجهاد، أي لا يستأذنك المؤمنون في الجهاد كراهة أنْ يجاهدوا. وتُعقّب بأنّه مبنيّ على أنّ الاستئذان في الجهاد ربما يكون لكراهة، ولا يخفى أنّ الاستئذان في الشّيء لكراهته ممّا لا يقع، بل لا يُعْقَل، ولو سلم وقوعه فالاستئذان لعلّة الكراهة ممّا لا يمتاز بحسب الظّاهر من الاستئذان لعلّة الرّغبة، ولو سلم فالذي نفي عن المؤمنين يجب أنْ يثبت للمنافقين، وظاهر أنّهم لم يستأذنوا في الجهاد لكراهتهم له؛ بل إنّما استأذنوا في التّخلُّف، فتدبَّر. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ شهادة لهم بالتّقوى، لوضع المظهر فيه موضع المضمر أو إرادة جنس المتّقين ودخولهم فيه دخولاً أوليّاً وعده لهم بالثّواب الجزيل"(1).

ثالثاً: الكُفْر بالله ورسوله وإتيانهم الصّلاة وهم كُسَالى وإنفاقهم وهم كارهون:

قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[التّوبة: 54].

جاء في "تفسير روح البيان": "﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ

(1) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، شهاب الدّين أبو الفضل السّيّد محمود الألوسي، ضبط وتصحيح: علي عبد الباري عطية، دار الكُتُب العلميّة، بيروت، 1415 هـ-1994م، ج 5، ص 301.

كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ استثناء من أعمّ الأشياء، أي ما منعهم من قَبول نفقاتهم منهم شيء من الأشياء إلاّ كُفْرهم، فالمستثنى المفرّغ مرفوع المحلّ على أنّه فاعل مَنَعَ. وقوله: ﴿أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ﴾ مفعوله الثّاني بنزع الخافض أو بنفسه، فإنّه يقال: مَنَعْتُ الشّيء ومَنَعْتُ فلاناً حقّه ومَنَعْتُهُ من حقّه، ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ الكُسَالى جمع كسلان، كما يقال: سُكَارى وسكران، قال البغوي: كيف ذكر الكسل في الصّلاة ولا صلاة لهم أصلاً؟ قيل: الذّم واقع على الكُفْر الذي يبعث على الكسل، فإنَّ الكُفْر مُكسّل والإيمان مُنشّط، ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ فالرّغبة والنّشاط في أداء العبادات متفرّعة على رجاء الثّواب بها وخوف العقاب على تركها، المتفرّعين على الإيمان بما جاء به النّبيّ ﷺ من عند الله. والمنافق لا يؤمن بذلك، فلا يرجو ثواب الآخرة ولا يخاف عقابها، فيكون كسلاناً في إتيان الصّلاة وكارهاً للإنفاق؛ لزعمه أنّهما إتعاب للبدن وتضييع للمال بلا فائدة، وفيه ذمّ الكسل، قيل: من دام كسله خاب أمله"[1].

رابعاً: ابتغاء الفتنة:

قال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [التّوبة: 48].

---

(1) روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، دار الفكر، بيروت، تاريخ النّشر بالشّاملة: 8 ذو الحِجّة 1431هـ، ج 3، ص 448، وتفسير البغوي، ج 2، ص 357.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ أي طلبوا الشرّ بتشتيت شملك، وتفريق صحبك عنك، من قبل غزوة تبوك، كما فعل عبد الله بن أُبي بن سلول حين انصرف بأصحابه يوم أُحُد عن المسلمين، ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ أي دبَّروا لك الحيل والمكايد ودوّروا الآراء في إبطال أمرك. والمراد من الأمور المكايد، فتقليبها مجاز عن تدبيرها، أو الآراء، فتقليبها تفتيشها وإحالتها، ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ وهو تأييدك ونصرك وظفرك، ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي علا دينه، ﴿وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ أي على رغم منهم(1).

قال ابن كثير: "لما قدم النّبيّ ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها، فلمّا نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال ابن أُبيّ وأصحابه: هذا أمر قد توجّه -أي: أقبل- فدخلوا في الإسلام ظاهراً. ثُمّ كلّما أعزَّ اللهُ الإسلامَ وأهله أغاظهم ذلك وساءهم"(2).

خامساً: محاددة الله ورسوله:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾[التّوبة: 63].

أورد ابن كثير في معنى الآية: "قال قتادة في قوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾[التّوبة: 62] الآية: ذكر لنا أنَّ رجلاً من المنافقين قال: والله إنَّ هؤلاء

(1) محاسن التّأويل، محمد جمال الدّين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السّود، دار الكُتُب العلميّة، بيروت، طبعة 1418 هـ ج 5، ص430.

(2) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج 4، ص 299.

لخيارنا وأشرافنا، وإنْ كان ما يقول محمدٌ حقّاً لهم شرٌّ من الحمير. قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله ما يقول محمد لحقٌّ ولأنت شَرٌّ من الحمار، قال: فسعى بها الرّجل إلى النّبيّ ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرّجل فدعاه فقال: (ما حملك على الذي قلت؟)، فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرّجل المسلم يقول: اللّهم صَدِّقِ الصّادق وكَذِّب الكاذب، فأنزل الله الآية. وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أي ألم يتحقّقوا ويعلموا أنّه من حادّ الله -عزّ وجلّ - أي شاقّه وحاربه وخالفه، وكان في حدّ والله ورسوله في حدّ، ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ أي مهاناً مُعذّباً، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ أي وهذا هو الذّلّ العظيم والشّقاء الكبير"[1].

سادساً: السُّخرية:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾[التوبة: 79]. وقد سبق تناول تفسيرها عند تناولنا لإساءتهم بالقول للنبيّ ﷺ وصحابته.

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج 2، ص 747.

المبحث الثّاني

أعمال القلوب

المطلب الأوّل: الشّكّ والرّيب وابتغاء الفتنة والحقد الدّفين:

أولاً: الشّكّ والرّيب:

قال تعالى: ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥﴾ [التّوبة: 45].

بيّن الله تعالى لرسوله ﷺ في هذه الآية أنّ المؤمنين الصّادقين لا يستأذنون في القعود عن الغزو؛ لأنّهم يرون الجهاد قُرْبة يتقرّبون بها إلى الله، فكيف يتخلّفون عنها؟ ثمّ بيّن تعالى أنّ الّذين يستأذنون في القعود ممّن لا عذر لهم في الحقيقة هم الّذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثواب الله في الدّار الآخرة على أعمالهم، وشكّت قلوبهم في صحّة الإسلام حتّى أصبحوا في شكّهم يتحيّرون، يُقدّمون رِجْلاً ويؤخّرون أخرى، ثم دلّل الله على كذبهم في استئذانهم وأنّهم ما تخلّفوا بسبب الإذن، بل لأنّهم من الأصل لا يريدون القتال والخروج، أذن لهم رسول الله ﷺ أو لم يأذن، بأنّهم ما أظهروا أيّة علامة صدق للخروج، فلم يستعدوا ويُعِدُّوا له أصلاً، فلو كانوا صادقين لتأهّبوا[1].

قال الرّازي: "﴿فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ معناه أنّ الشّاكّ المُرتاب يبقى مُتردّداً بين النّفي والإثبات، غير حاكم بأحد القسمين ولا جازم بأحد النّقيضين، وتقريره: أنّ

(1) الأساس في التّفسير، سعيد حوّى، دار السّلام، القاهرة، طبعة 1405 هـ- 1985م، ج 4، ص 2290.

الاعتقاد إمَّا أنْ يكون جازماً أو لا يكون. فالجازم إنْ كان غير مطابق فهو الجهل، وإنْ كان مطابقاً فإنْ كان غير يقين فهو العلم، وإلاّ فهو اعتقاد المُقلِّد، وإنْ كان غير جازم فإنْ كان أحد الطّرفين راجحاً فالرّاجح هو الظّنّ والمرجوح هو الوهم، وإنْ اعتدل الطّرفان فهو الرّيب والشّكّ، وحينئذ يبقى الإنسان مُتردِّداً بين الطّرفين "(1).

ثانياً: ابتغاء الفتنة:

قد سبق ذكرها في إطار جارحة اللّسان وفي إطار الجوارح الأخرى، وأذكرها هنا في إطار أعمال القلوب؛ إذ إنّهم أرادوها من قلوبهم، واستهدفوها بلسانهم، وسعوا إليها بجوارحهم، وأضمروها وبيّتوها في قلوبهم، قال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [التّوبة: 48].

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ بل من يوم هاجرت إلى المدينة ووجد بها الإسلام، وهم يثيرون الفتن بين أصحابك للإيقاع بهم، وفي أُحُد رجع ابن أُبيّ بثُلُث الجيش –وهم بنو سلمة وبنو حارثة– بالرّجوع عن القتال، لولا أنَّ الله سلَّم، ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ صرفوها في وجوه شتّى بقصد القضاء على دعوتك، فظاهروا المشركين واليهود في مواطن كثيرة، وكان هذا دأبهم، ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ بفتح مكّة، ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بدخول أكثر العرب في دين الله، ﴿وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ لذلك، بل

---

(1) تفسير الرّازي، ج 16، ص 61.

أسفون حزنون. لذا فلا تأسفوا على عدم خروجهم معكم، ولا تحفلوا به أو تهتموا له، فإنَّ الله -رحمة بكم ونصراً لكم- صرفهم عن الخروج معكم. فاحمدوا الله وأثنوا عليه بما هو أهله، ولله الحمد والمنّة"(1).

ثالثاً: الحقد الدّفين للرّسول والمؤمنين:

قال تعالى: ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [التوبة: 50].

جاء في تفسير هذه الآية: "﴿ إِن تُصِبْكَ ﴾ في بعض الغزوات، ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ ظفر وغنيمة، ﴿ تَسُؤْهُمْ ﴾، ﴿ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ ﴾ نكبة وشدّة في بعضها، نحو ما جرى في يوم أُحُد يفرحوا بحالهم في الانحراف عنك، ﴿ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي أمرنا الذي نحن متّسمون به، من الحذر والتّيقُّظ والعمل بالحزم، ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل ما وقع، ﴿ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ ويتولّون عن مقام التّحدُّث بذلك والاجتماع له إلى أهاليهم وهم فرحون مسرورون. وقيل: تولّوا: أعرضوا عن رسول الله ﷺ"(2).

قال ابن عطية: "أخبر تعالى عن معتقدهم وما هم عليه، والحسنة هنا -بحسب

(1) أيسر التّفاسير لكلام العلي الكبير، للجزائري، ج 2، ص 385.

(2) الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، محمود بن عمر بن أحمد الزّمخشري، ضبط وتصحيح وترتيب: مصطفى حسين أحمد، دار الرّيان للتّراث-القاهرة ودار الكتاب العربي- بيروت، طبعة 1407 هـ-1987م، ج 2، ص 278.

الغزوة- هي الغنيمة والظّفر، والمصيبة الهزم والخيبة. واللّفظُ عامٌّ بعد ذلك في كلِّ محبوب ومكروه. ومعنى قوله: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي حزمنا نحن في تخلّفنا ونظرنا لأنفسنا. وقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التّوبة: 51]، أمر الله -عزّ وجلّ - نبيّه ﷺ في هذه الآية أنْ يردّ على المنافقين ويفسد عليهم فرحهم، بأنْ يعلمهم أنّ الشّيء الذي يعتقدونه مصيبة ليس كما اعتقدوه، بل الجميع ممّا قد كتبه الله -عزّ وجلّ - للمؤمنين، فإمّا أنْ يكون ظفراً وسروراً في الدّنيا، وإمّا أنْ يكون ذخراً للآخرة"(1).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التّوبة: 61].

المطلب الثّاني: الكُفْر والعُجْب والخوف الشّديد:

أولاً: كُفْر المنافقين بالله ورسوله والنّفقة وهم كارهون:

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التّوبة: 54].

ثانياً: العُجْب بالمال والولد:

---

(1) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرّحمن بن تمام بن عطية الأندلسيّ المحاربي، تحقيق: عبد السّلام عبد الشّافي محمد، دار الكتُب العلميّة، بيروت، طبعة 1422هـ، ج 3، ص 42.

قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التّوبة: 55].

جاء في "التّفسير الوسيط" للزّحيلي في شرح الآية: "﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ﴾ فلا تعجبك -أيّها النّبيّ وكلّ مشاهد أو سامع- أموال المنافقين ولا أولادهم ولا سائر نعم الله عليهم، فإنّما هي من أسباب المِحَن والآفات عليهم. والكلام بهذا الأسلوب أو اللّفظ تحقير شأن المنافقين، فإنّ إعطاء الله لهم الأموال والأولاد بإرادته تعذيبهم بها. أمّا أموالهم في الدّنيا؛ فهي سبب تعذيبهم بها، حيث يتعبون في جمعها، ويصحبها الهمّ والقلق، ثم ينفقونها كارهين في الجهاد والزّكاة وتقوية غيرهم. وكذلك أولادهم، ربما كانوا سبب ألم وكرب، وفي الآخرة يُعذَّبون عذاباً شديداً، حيث تزهق أنفسهم، أي يموتون، على الكُفْر الذي يحبط العمل الصّالح، وتكون النّتيجة أنّهم خسروا الدّنيا والآخرة، والحال أنّهم ماتوا وهم كافرون، وذلك هو الخُسْران المبين. فما يظنّ المنافقون في صدر الإسلام أنّه من منافع الدّنيا هو في الحقيقة سبب لعذابهم وبلائهم"(1).

وفي "التّفسير الوسيط" لطنطاوي: "والإعجاب بالشّيء معناه: أنْ تسرّ به سروراً يجعلك راضياً به ومتمنياً له، والفاء في قوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ﴾ للإفصاح. أي إذا كان هذا

(1) التّفسير الوسيط، للزّحيلي، د وهبة بن مصطفى الزّحيلي، دار الفكر، دمشق، طبعة 1422 هـ، ج 1، ص 873.

هو شأن المنافقين، فلا تستحسن -أيها العاقل- ما أعطيناهم إياه من أموال وأولاد، فإنّه نوع من الاستدراج. وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تعليل للنّهي عن الإعجاب بما أعطاهم الله من أموال وأولاد. أي: إنّما يريد الله بإعطائهم تلك الأموال والأولاد أنْ يعذّبهم بها في الحياة الدّنيا"(1).

قال الفخر الرّازي: "ومَنْ تأمّل في هذه الآيات عرف أنّها مُرتّبة على أحسن الوجوه، فإنّه- سبحانه- لما بيّن قبائح أفعالهم وفضائح أعمالهم بيّن ما لهم في الآخرة من العذاب الشّديد، وما لهم في الدّنيا من وجوه المِحْنَة والبليّة، ثمّ بيّن بعد ذلك أنّ ما يفعلونه من أعمال البرّ لا ينتفعون به يوم القيامة البتّة، ثمّ بيّن في هذه الآية أنّ ما يظنّونه من منافع الدّنيا هو في حقيقته سبب لعذابهم وبلائهم وتشديد المِحْنَة عليهم. وعند ذلك يظهر أنّ النّفاق جالب لجميع الآفات في الدّنيا والدّين، ومبطل لجميع الخيرات في الدّين والدّنيا"(2).

ثالثاً: الخوف الشّديد من المواجهة:

قال تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [التّوبة: 57]. قال البغويّ في تفسيره لهذه الآية: "﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ حِرْزاً أو حِصْناً أو مِعْقلاً. وقال عطاء: مهرباً، وقيل: قوماً يأمنون فيهم، ﴿أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ﴾ غِيراناً في

(1) التّفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيّد طنطاوي، دار نهضة مصر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الفجالة-القاهرة، 1998م، ج 6، ص 320.

(2) التّفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، الفخر الرّازي، ج 4، ص 452.

الجبال، جمع مغارة، وهو الموضع الذي يغور فيه، أي: يستتر. وقال عطاء: سراديب. ﴿مُدَّخَلًا﴾ موضع دخول يدخلون فيه، وهو من أدخل يدخل، وأصله: مدتخل مفتعل، من أدخل يدخل. قال مجاهد: محرزاً. وقال قتادة: سرباً. وقال الكلبي: نفقاً في الأرض كنفق اليربوع. وقال الحسن: وجهاً يدخلونه على خلاف رسول الله ﷺ، وقرأ يعقوب: ﴿مَدْخَلاً﴾ بفتح الميم وتخفيف الدّال، وهو -أيضاً- موضع الدّخول، ﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ﴾ لأدبروا إليه هرباً منكم، ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يسرعون في إباء ونفور ولا يردّ وجوههم شيء. ومعنى الآية: لَّهم لو يجدون مخلصاً منكم ومهرباً لفارقوكم"[1].

المطلب الثّالث: عدم القناعة والخوف من الفضيحة والبُخْل والفسق:

أولاً: عدم القناعة:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التّوبة: 59].

قال البغويّ في تفسير هذه الآية: "﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: قنعوا بما قسم لهم الله ورسوله، ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ كافينا الله، ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ما نحتاج إليه، ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ في أنْ يوسّع علينا من فضله، فيغنينا عن الصّدقة وغيرها من أموال النّاس. وجواب (لو) محذوف، أي: لكان خيراً لهم

(1) مختصر تفسير البغويّ، عبد الله بن أحمد، ج 2، ص 357.

وأعود عليهم"[1]. وقد تقدَّم ذكر سبب نزول هذه الآية في هذا البحث عند تناولنا لأذى المنافقين لرسول الله ﷺ ولصحابته والإساءة إليهم.

وقد ذكر القاسمي معنىً دقيقاً ولطيفاً في تفسير هذه الآية، حيث قال: "فتأمَّل كيف جعل الإيتاء لله ولرسوله كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: 7]، وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا: حسبنا الله ورسوله، بل جعله خالص حقّه، كما قال: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التّوبة: 59]، ولم يقل: وإلى رسوله، بل جعل الرّغبة إليه وحده، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشّرح: 7-8]، فـ (الرّغبة) و(التّوكُّل) و(الإنابة) و(الحسب) لله وحده. كما أنّ (العبادة) و(التّقوى) و(السّجود) لله وحده. والنذر والحلف لا يكون إلاّ له -سبحانه وتعالى-. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزّمر: 36]، فـ (الحسيب) هو (الكافي)، فأخبر -سبحانه وتعالى- أنه وحده كافٍ عبده، فكيف يجعل أتباعه مع الله في هذه الكفاية؟"[2].

ثانياً: الخوف من الفضيحة والاستهزاء:

قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۝٦٤﴾ [التّوبة: 64].

(1) مختصر تفسير البغوي، المرجع السّابق، ج 3، ص 383.

(2) محاسن التّأويل، القاسمي، ج 5، ص 321.

نقل ابن الجوزي في تفسيره في سبب نزول الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: أنَّ المنافقين كانوا يعيبون رسول الله ﷺ فيما بينهم، ويقولون: عسى الله لاَّ يفشي سرَّنا. فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد.

والثّاني: أنَّ بعض المنافقين قال: لودِدتُ أنّي جُلدت مائة جلدة، ولا ينزل فينا شيء يفضحنا. فنزلت هذه الآية، قاله السعديّ .

والثّالث: أنَّ جماعة من المنافقين وقفوا للنّبيّ ﷺ في ليلة مظلمة عند مرجعه من تبوك ليفتكوا به، فأخبره جبريل عليه السلام. ونزلت هذه الآية، قاله ابن كيسان(1).

قال الشّيخ النّوويّ الجاويّ الإندونيسيّ في تفسير هذه الآية: " ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي يخاف المنافقون أنْ تنزل في شأنهم سورة تذيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم إذاعة ظاهرة، فتنتشر فيما بين النّاس فيسمعونها من أفواه الرّجال، فكأنَّ السّورة تخبرهم بها. وهم كانوا إذا سمعوا رسول الله ﷺ يذكر كلّ شيء ويقول إنّه بطريق الوحي يكذّبونه ويستهزئون به، ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ ﴾ أي افعلوا الاستهزاء بمحمّد والقرآن، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ أي فإنَّ الله مظهر ما تحذرونه من إنزال السّورة"(2).

---

(1) زاد المسير في علم التّفسير، ابن الجوزي، ج 2، ص 274.

(2) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، محمد بن عمر نووي الجاوي البنتني، تحقيق: محمد أمين الصّناوي، دار الكُتُب العلميّة، بيروت، طبعة 1417 هـ، ج 1، ص 456.

ثالثاً: البُخْل ونسيان الله والفسق:

قال تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[التّوبة: 67].

أورد أبو حيّان في تفسيره "البحر المحيط" أنّ المنافقين: "﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تركوا طاعة الله وطاعة رسوله، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: تركهم من الخير، أمّا من الشّرّ فلم ينسهم. وقال الزّمخشري: أغفلوا ذكره فنسيهم وتركهم من رحمته وفضله، ويُعبّر بالنّسيان عن التّرك مبالغة في أنّه لا يخطر ذلك ببال. ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: هم الكاملون في الفسق الذي هو التّمرُّد في الكُفْر والانسلاخ من كلّ خير. وكفى المسلم زاجراً أنْ يلمّ بما يكسب هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله به المنافقين"(1).

المطلب الرّابع: الفرح بالتّخلُّف عن رسول الله ﷺ وعدم العلم بحدود الله والخوف من النّاس:

أولاً: الفرح بالتّخلُّف عن رسول الله ﷺ وكُرْه الجهاد في سبيل الله:

قال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[التّوبة: 81].

جاء في "تفسير الخواطر" للشّعراوي: "الفرح هو السّرور من فعل تبتهج النّفس

(1) البحر المحيط، ج 5، ص 68.

به. والمُخَلَّفون هم الّذين أخلفهم نفاقهم، وتركهم رسول الله ﷺ في المدينة وذهب إلى الجهاد، بعد أنْ جاءوه بالمعاذير الكاذبة التي قالوها، وقد تركهم رسول الله ﷺ؛ لأنَّ الحقّ -سبحانه- قال: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ [التّوبة: 47]. ومَنْ لا يريد أنْ يجاهد في سبيل الله إنْ أخذته معك كرهاً يكون ضدّك وليس معك، وسيشيع الأكاذيب بين المؤمنين ويحاول أنْ يخيفهم من الحرب، وإذا بدأ القتال فهو أوّل من يهرب من المعركة ويبحث عن مغارة أو حجر يختفي خلفه. إذن: فهو ليس معك، ولكنّه ضدّك؛ لأنّه لن يقاتل معك، بل ربما أعان عدوّك عليك. وفي نفس الوقت هو يضرّ بالمسلمين، ويحاول أنْ يشيع بينهم الرّعب بالإشاعات الكاذبة"(1).

ثانياً: شدّة النّفاق وعدم العلم بحدود ما أنزل الله:

قال تعالى: ﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ ﴾ [التّوبة: 97].

الأعراب هم أهل البادية، و"إنَّ في عالم الإنسانية بدواً هو نفسه وحضراً هو قلبه، والكُفْر والنّفاق للنّفس مقتضى اللّذّات، كما أنَّ الإيمان للقلب لذّاته بالفطرة، وقد يصير القلب كافراً بسراية النّفس، وقد تصير النّفس مؤمنة بسراية القلب. لكنّ النّفس تكون أشدّ كُفْراً من القلب الكافر، كما أنَّ القلب يكون أشدّ إيماناً من النّفس المؤمنة"(2).

في تفسير البيضاوي لهذه الآية: "﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ ﴾ أهل البدو، ﴿ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا ﴾

---

(1) تفسير الشّعراوي-الخواطر، محمد متولي الشّعراوي، مطابع أخبار اليوم، طبعة 1997م، ج 9، ص ٥٣٧١.

(2) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النّيسابوري، ج 3، ص 522.

من أهل الحضر لتوحُّشهم وقساوتهم وعدم مخالطتهم لأهل العلم وقلّة استماعهم للكتاب والسُّنّة، ﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ﴾ وأحقّ بأنْ لا يعلموا، ﴿حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ من الشّرائع فرائضها وسُنَنها، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ والله عليم يعلم حال كلّ أحد من أهل الوَبَر والمَدَر، حكيم فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم عقاباً وثواباً"[1].

ثالثاً: الخوف من النّاس وليس من الله:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧﴾ [التّوبة: 127].

جاء في "التّفسير المنير": "وإذا أُنزلت سورة قرآنيّة على النّبيّ ﷺ، وهم جلوس عنده، تلفّتوا وتغامزوا بالعيون وتهكّموا لفساد قلوبهم، وعزموا على الهروب، قائلين: هل يراكم الرّسول ﷺ أو المؤمنون إذا خرجتم؟ ثُمّ انصرفوا جميعاً عن مجلس النّبيّ ﷺ، أي تولّوا عن الحقّ، فهذا حالهم في الدّنيا، لا يثبتون عند الحقّ ولا يقبلونه ولا يفهمونه. صرف الله قلوبهم عن الحقّ والإيمان وعن الخير والنّور. وهذا إمّا دعاء عليهم به أو إخبار عن أحوالهم، ذلك الصّرف بسبب أنّهم قوم لا يفهمون الآيات التي يسمعونها، ولا يريدون فهمها، ولا يتدبّرون فيها حتّى يفقهوا، بل هم في شُغُل عن الفهم ونفور منه"[2].

(1) أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل، البيضاوي، ج 3، ص 167.

(2) التّفسير المنير في العقيدة والشّريعة والمنهج: وهبة الزّحيلي: دار الفكر، دمشق-سورية، ودار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، طبعة 1411 هـ-1991م، ج 11، ص 86.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصّالحات، وصلوات المباركات وتسليماته الزّاكيات على المبعوث بخاتم الرّسالات، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم البعث والجزاءات. وبعد،،،،

تطرّق هذا البحث إلى بيان التّصوير القرآني لأقوال المنافقين وأفعالهم، وفضح دواخلهم، ودحض حُججهم، وما كان من شأنهم في غزوة تبوك من المؤامرات والدّسائس التي كشفتها سورة التّوبة. وقد انتهى إلى جُمْلة نتائج وبعض توصيات، هي:

أولاً: النّتائج:

1. الكُفْر والنّفاق ملّة واحدة في مختلف الأمكنة والأزمنة، فالكُفَّار والمنافقون متشابهة قلوبهم وصفاتهم وأقوالهم وأفعالهم.
2. من أكبر عوائق تقدُّم الأُمّة وتحقيق انتصاراتها المنافقون المندسّون بين صفوفها الموالون لعدوّها.
3. تخلُّف المسلم عن الأمور الجامعة -كالصّلاة والجهاد- يدخله في شُبْهة ضعف الإيمان والرّيب والشّكّ .
4. التّخلُّف عن الأمور الجامعة من غير عُذْر سبيل إلى عذاب الله.
5. مراقبة المنافقين للنّاس خوفاً منهم، وليس من الله.
6. شدّة أذى المنافقين وإساءتهم للرّسول ﷺ وللمؤمنين، وحقدهم الدّفين على المسلمين.

7. كراهة المنافقين للمواجهة والشّدائد.
8. التماس المنافقين للحيل عند الأمور الجسام.
9. عدم قُدْرة المنافقين على المواجهة.
10. ابتغاء المنافقين للفتنة.
11. كفر المنافقين بالله ورسوله، وإتيانهم الصّلاة وهم كُسالى، والنفقة وهم كارهون.
12. المنافقون يكشفون عن أنفسهم أحياناً بالتّصريح بها في دواخلهم.

ثانياً: التّوصيات:

يوصي الباحث بالتّالي:

1. دراسة صفات المنافقين وأساليبهم وأقوالهم وأفعالهم في القرآن الكريم كُلّه، وليس في سورة التّوبة وحدها.
2. على الأئمة والدُّعاة أنْ يبصِّروا عامّة المجتمع بالمنافقين وصفاتهم وأقوالهم وأفعالهم.
3. تطهير المجتمع والمصالح والمؤسسات من المنافقين المندسّين.

أسأل الله تعالى أنْ يجعل هذا البحث صالحاً ولوجهه خالصاً، وأنْ ينفع به طلاب العلم خاصّة والمسلمين عامّة، إنّه ولي ذلك والقادر عليه.

وبالله التّوفيق وعليه التّكلان.